في الظل والشمس

محمود الوردني

بدا له أنّ وقتاً طويلاً قد مضى، وهو جالس على مقعده في حجرة الاستراحة، ينتظر أن تسمح له السّكرتيرة السّمينة بالدّخول إلى الحجرة المجاورة، والمثول أمام الرّجل الذي سيوافق على التحاقه بالعمل في المؤسّسة.

كان بوسعه أن يلمح اللافتة الزّجاجية الضّخمة المعلّقة على البناية المواجهة، وقد التزم مقعده يلملم الحروف السّوداء المائلة: «الشّركة العالمية للتجارة». وحين حدّق في شبح امرأة تطلّ من الشّرفة قدّامه، اصطدمت عيناه بلافتة برتقالية تتوسّط الواجهة، مكتوبة بحروف لاتينية بلون البرتقال. كانت كلمة «إيليت» بحروف كبيرة، وثمّة كلمات أخرى بحروف أصغر لم يستطع أن يميّزها، أسفل شبح المرأة المطلّة.

تنهّد قائلاً: سوف يحلّ اللّيل سريعا ويشتدّ البرد. إنّهم حتّى لم يقدّموا لي شاياً على الرّغم من أنّني جئت منذ... متى جئت؟

هل كان الفجر قد لاح وهو يعبر شارعه المطلّ على المقابر، مستقبلاً المدينة النّائمة، وعن يساره تربض القلعة العتيقة وكأنّها معلّقة في أعلى الجبل؟

وصل إلى مدخل البناية، وتأكّد من الرّقم المدوّن على الحائط بالعربية والانجليزية، استقلّ المصعد.

ناول السّكرتيرة التي هاله حجمها الضّخم، وابتسامتها وهي تخلع نظّارتها البيضاء وتغمز له بعينيها السّوداوين، ناولها بطاقة التّوصية، فلامستْ يده، واقتربت منه حتّى أحسّ برائحة فمها القابضة، فيما كانت تهمس له:

«اتفضل استريح.. هناك..».

وأشارت له بيدها الخالية، بينما قبضت على يده وبطاقة التّوصية معاً باليد الثّانية. واحتار هو أمام عينيها اللّتين كانتا تنطقان بغواية مفضوحة. غير أنّها كانت سمينة إلى حدّ بدا معه بالغ الضآلة قدّام جرمها المنحني. تركها تقترب منه حتّى التصقت به. وتسارعت أنفاسها وهي تضغط على جسمه لاهثة، وبات عليه أن يتهيّأ لخطر الإلقاء به على الأرض. عندئذ، خففتْ هي من ضغطها، فتنفّس الصّعداء، وكاد يركض دالفاً إلى حيث أشارت.

كان ثمّة مكتبان متواجهان ومقاعد جلديّة عديدة متناثرة أمام النّافذة الزّجاجية المغلقة. وعاد يتذكّر أنّ المرأة تركته منذ حلّ في الصّباح، وها هو يطفئ آخر سيجارة في علبته.

كان قد صمد طوال النّهار. سمع أصوات رجال يزعقون ويسبّون السّكرتيرة بشتائم قبيحة، وهي تردّ عليهم بسباب أقذع، بل إنّها شخرت لهم، ثم سمع أصوات ارتطامات مفاجئة راحت تجعله ينتفض واقفاً، حتّى تعود عليها. وتتالت أصوات أطفال ونسوة وطرقات على الباب الخارجي، لكنّه صمد ولم يغادر مقعده، منتظراً أن توافق السّكرتيرة في نهاية الأمر على لقائه الرّجل في الدّاخل. وباغته صوت مبحوح آسر لامرأة تناديه باسمه الثلاثيّ مرتين متتاليتين، وتكاد تتألّم وهي تنطق باسمه واسم أبيه، وقبل أن تصل إلى اسم جدّه تشهق وكأنّها موشكة على البكاء من فرط غلمتها.. لكنّه لم يتحرّك. ثم سمع صوت طفلة أخرى تناديه باسمه الأوّل، وأطفال ورجال ونساء ينادونه باسمه المجرّد.. غير أنّه صمد.

كان مستعدّاً لخوض كلّ المعارك شريطة أن يقابل الرّجل في نهاية الأمر، ويلحقه بعمل يحرّره من البقاء لأيام في بيته المطلّ على مقابر المدينة، حيث الضّجر ورائحة الموتى يخيّمان في الظلّ والشّمس.

ثم مرّ وقت طويل راح يرقبه جالساً في حجرة الاستراحة حيث أشارت له السّكرتيرة منذ زمن بدا له طويلاً، فقد انقطع صوتها وانقطعت كلّ الأصوات واستحوذ عليه صوت الصّمت.

للحظة خيّل له أنّ باستطاعته الاندفاع إلى الخارج، وإعطاء ظهره للسكرتيرة، ثمّ ينقضّ على أكرة الباب جسوراً لا يهاب الأخطار، مقدّماً نفسه إلى المدير أو الرّئيس أو أرفع شخصية في المؤسسة، واثقاً للمرّة الأولى من الشّهادات والخبرات التي حصل عليها على مدى عمره الّذي ولّى.

وفاجأه حلول الليل، وشاهد ارتعاشات أضواء النيون البيضاء النّاعمة، والحمراء أيضاً، وهي تحاول ضبط تتابعها لتشكّل «إيليت».

وومضت الأضواء الصّافية المحيطة بلافتة الشّركة العالمية للتجارة.

تملكته رغبته الحارقة في التدخين، وقام من مقعده، لكنّه سرعان ما عاد للجلوس ومدّد ساقيه أمامه، وتذكّر أنّ الانفجارات في أنحاء المدينة قد تزايدت في الآونة الأخيرة. كان يكاد يحصيها وهو مستلق في فراشه أسفل النّافذة المطلّة على غابة المآذن قبل أن يغادره إلى لقائه المرتقب.. وعلى الرّغم من كلّ ذلك، فها هو صاعد لم يستمع لمن حاولت إغواءه.

واضطرّ للاستسلام لجلسته. كان يبغي النّهوض والانطلاق للمثول بين يدي المدير، وراح يقلّب الأمر على وجوهه: هل يقتحم الحجرة المغلقة دون استئذان؟ وإذا كانت السّكرتيرة تقعي على مكتبها فهل تمنعه؟ إنّ باستطاعتها أن تكبّله بمجرّد النّظر، فهل يحرص على تجنّب عينيها سواء كانت ترتدي نظّارتها أو كانت قد خلعتها بتلك الحركة التي تتصوّر أنّها بالغة الرّشاقة؟

قال لنفسه أخيراً: على أيّ حال، لقد صمدتُ حتى الآن، ولم أغادر موقعي، ولم يغلبني النّوم والرّغبة في التّدخين والخوف والجنون.

القاهرة

حكايات قصيرة جدّاً

ثائر زكي الزعزوع

١ ـ حكاية رجل

سار الرّجل على الرّصيف، بمحاذاة النّهر، بين الجموع الكثيرة وقت الظّهيرة، أواخر شهر نيسان الفائت، وكان جائعاً... لأنّه مفلس... لأنّه يفكّر...

٢ ـ يسقط

وقف الرّجل في المقهى وصرخ: يسقط. ردّد الجميع: يسقط. في اليوم الثّاني، وقف الرّجل نفسه وصرخ: يسقط. ردّد الجميع: يسقط. في اليوم الثّالث، سقط الصّرصور الّذي كان معلّقاً بشبكة عنكبوت على السّقف.

٣ ـ الحالم

بعد أن دفنوه، وبكوا عليه كثيراً، عادت زوجته إلى البيت ونامت مع أولادها بعمق. لقد كان يضحك بصوت عال، وكانت أحلامه صاخبة، ضاحكة، فلم ينم البيتُ كُلُّه.

٤ ـ تقليد أعمى

كان أبو مهنّد حكيماً. ثمّ مات فجأة وبدون مقدّمات. هكذا قال المعلّم لتلاميذه. بعد يومين.. قالوا إنّ المعلّم مات فجأة وبدون مقدّمات.

٥ ـ الطّفل والملك

هدم الملك المعبد ونظر إلى النّاس بتحدّ. ثمّ خطب فيهم خطبة نهى فيها عن عبادة سواه. هزّ الجميع رؤوسهم موافقين، إلاّ طفل صغير.. كان يحمل الصّليب ويرفعه إلى السّماء.

٦ ـ العيد

كانت المدينة تحتفل، وكان الخطباء يكبّرون في الجوامع. كلّ النّاس كانوا فرحين، يرقصون، ويجهّزون الحلويات والألبسة. وكان الحاكم يجهّز الجيش، سرّاً، لحرب جديدة.

٧ ـ المطر

قال العاشق لحبيبته: المطر يبلّل أرواحنا، ويجعلنا أقرب إلى الطّهر.

قال الفلاّح لزوجته: المطر يروي الأرض، ويزيد